المحاضرة الرابعة:

بيار بورديو والبنيوية الجنينية:

أولا–بيار بورديو Pierre Bourdieu:

ترعرع بيار بورديو (1930–2002)في بلدة صغيرة في الريف الجنوبي الشرقي لفرنسا، وكان ابنا لموظف بسيط في الخدمة المدنية قريبا من عالم الكفاح لفلاحي الجنوب، ليخضع وهو طالب عالمه الأكاديمي الى تدقيق وتحليل مفصل رافضا أي ثقافة شيوعية و استالينية. ليصبح أحد أعظم علماء الاجتماع في النصف الثاني من القرن العشرين، وأكثرهم شهرة في سياق الكتابات ضمن الإطار النظري النقدي، تخرج من مدرسة المعلمين العليا بباريس، وأصبح مدير الدراسات في كلية الدراسات العليا بباريس، وهو مؤسس ومدير مركز علم الاجتماع الأوروبي، وتقلد منصب أستاذ في كلية فرنسا من عام 1982 الى 2001.

حيث جمع في فكره بين ثلاثة مؤسسين لعلم الاجتماع وهم كارل ماركس Karl Marxواميل دوركايمEmile Durkheim وماكس فيبر Max Weber. وفي العقد الأخير من حياته أصبح بورديو معروف على نطاق واسع ليس في فرنسا فقط ولكن في بلدان أخرى، خصوصا في المانيا بسبب معارضته لما وصفه بالسوط الليبرالي الجديد الذي يجلد عالمنا،وأصبح يقرأ له على نطاق واسع من قبل معظم العلماء الاجتماعيين الناطقين باللغة الإنجليزية. كما عرف بورديو بشكل خاص بكتاب آليات الاستنساخ الاجتماعي المدرسية، كتاب الوراثة... وقد طور فضلا عن ذلك نتاجا متعدد الاشكال في ميادين عدة مع حرصه على الا ينفصل أبدا الاعداد النظري كليا عن عملية التحري.

ثانيا–البنيوية الجنينية عند بيار بورديو:

يعرف بيار بورديو البنيوية الجنينية أو التوليدية او النشوئية النقدية كما يلي" إذا كنت أحب لعبة التوصيمات أقول بأنني أحاول صياغة بنيوية نشوئية: لا يمكن فيها عزل تحليل البنى الموضوعية–بنى الحقول المختلفة–عن تحليل نشوء البنى الذهنية، عند الافراد البيولوجيين التي هي إنتاج لاندماج البنى الاجتماعية ولتحليل نشوء هذه البنى ذاتها". حيث يعطي لكلمة بنيوية أو بنيوي معنى مختلف عن ذلك الذي تعطيه لها

تقاليد دو سوسير Du Saussureوليفي ستراوسLevi Strauss، مؤكدا انها توجد في العالم الاجتماعي ذاته وليس فقط في المنظومات الرمزية والكلامية والأساطير... توجد بنى موضوعية ومستقلة عن وعي وإرادة العاملين القادرة على توجيه أو اخضاع ممارساتهم أو تمثلاتهم. ومن خلال بنائية توجد نشأة اجتماعية من جهة، لبنى الادراك والتفكير والفعل ومن جهة أخرى نشأة للبنى الاجتماعية وخاصة لما أسماه الحقول.

وعموما نستطيع القول بأن البنيوية التوليدية تلتصق بسوسيولوجيا بورديو، الذي استعاد لعبة التوصيمات فقد لحسابه الخاصرغم انه لا يعترف بها، لكي يصف مقاربته التي يوجد مبدأها عند ج.بياجيه J.Piaget، إذ عمد إلى توظيفها معتقدا أنها تختصر بشكل شبه مطابق نظريته عن العالم الاجتماعي التي أعدها أثناء أبحاثه الإمبريقية. وهو بهذا الصيغة يشير في الوقت ذاته إلى مقاربته وإلى ما تتعارض معه. ذلك أن نظريته التطبيقية لا تنفصل عن التحاليل البناية مثل تحاليل ليفي ستراوس و التوسير Altosir، التي بنى معها وضدها نموذجه التفسيري للظاهرة في علم الاجتماع.

الأمر الذي يتطلب دراسة مواقف وأعمال بيار بورديو Pierre bourdieu، الذي صاغ، على أكمل وجه، هذا النموذج التفسيري التطبيقي الذي تكون عن طريق الاغتناء بمبادئ البنيوية وفي الوقت نفسه عن طريق نقدها. حيث أظهرت الأبحاث الأولى التي نشرها بورديو ضمن كتاب "علم الاجتماع الجزائر" في عام 1961 ، أنها أبحاث مرحلة تقص تجريبية أكثر مما هي نظرية، إذ المسائل المركزية التي طرحتها البنيوية لم تعالج إلا استطرادا، وهي تنتمي إلى مرحلة من التفكير النقدي حول فعالية نماذج الكشف Modéles hueristiques، لكن في أعماله حول الطلاب الفرنسيين (1974)، اعتمد بيار بودريو في تأويله، على النموذج البنيوي، ولم يصبح هذا الاعتماد صريحا ومنسقا إلا في كتابه "مهنة عالم الاجتماع"Métier de Sociologue (1978) خلال هذه المرحلة، تبين أن النموذج البنيوي كان محط إعادة نظر وموضوع نزاع في البعض من صياغاته، لكن إعادة قراءة محاولة أورين بانوفسكيErwin panofsky فتحت له باب فرضيات جديدة حول عملية الإبداع.

منذ تلك المرحلة أصبحت المسألة الجوهرية مطروحة، وهي التي اتخذت أهمية مطردة في أعماله اللاحقة: كيف تتجدد البنيات، كيف تعاود إنتاجها، المشكلة التي تفرض التركيز على سلوك الفاعلين agents، كونهم معيدي إنتاج الأوضاع Reproducteurs des Positions،وبالفعللقد عمل بيار بورديو على تنظيم أفكاره

والاجابة عنها ضمن ثلاثة تصورات هي: نسق المواقف، والأبيتوس habitus، وإعادة الإنتاج الاجتماعي Reproduction Sociale.

التصور الأول–نسق المواقف Coordinate positions:

إن الدرس الأولي للبنيوية الذي يدعو إلى تصويب أنساق العلاقات الذي يقوم على التمسك بكشف طبيعة العلاقات وطبيعة نسق العلاقات التي تنظم الموضوع المدروس وتمييز ما يمكن أن نطلق عليه الموضوعات " الصادقة" Vrais أو " الخاطئة" Faux: والتي تكشف عن مجموعة من العلاقات الداخلية و نسقا من العلاقات الذي يسمح تحليله بالوصول إلى تفسير وظائفها Fonctionnement، من أجل إظهار منطق النسق، مما يفرض اسقاط بعض الظواهر والقيام بعملية استكشاف متعددة الجوانب للبنى أو بالأحرى، نسق المواقف والعلاقات الذي يفرض معنى حركة بحث مثلثة tripel mouvementالتي تظهر في الكتاب المخصص للدراسة الاجتماعية للجامعة الفرنسية المعنون Homo académicus وترتكز على مجموعة من العمليات أهمها: –**الإسقاط Réduction** –**التعليم Repérage** –**التطوير Devzloppement**

التصور الثاني–الآبيتوسHabitus :

يعتبر مفهوم الآبيتوس منأكثر المفاهيم أهمية في سوسولوجية الممارسة لدى بورديو، إذ عكف بورديو منذ مطلع ستينات القرن العشرين على إعادة تحديد هذا المفهوم، ليجعل منه المفهوم المركزي لمشروعه الفكري وطرحه النظري، وهو مشروع تأسيس نظرية للممارسة توحد بين البنيوية والبنائية، باعتباره "نسق الخطط المتينة المكتسبة من التصور، والفكر، والفعل.يتولد عن أوضاع اجتماعية موضوعية لكنه يميل إلى الاستمرار حتى بعد تغيير تلك الأوضاع. ويرى بورديو أن الآبيتوس يمثل مفتاح إعادة الإنتاج، لأنه بحق هو ما يولدالممارسات المنتظمة المكررة التي تصنع الحياة الاجتماعية، إنه نتاج التكييفات الاجتماعيةولذلك يربط السلوك الفعلي ببناء الطبقة" .

وفي مقابلة أجريت مع بورديو في عام 1985 أشار بيار بورديو أنه فإدخاله عبارة ما بعد البنيوية–post structuralisme و التي تبدو مفيدة لوصف وضعي situation ابستيمولوجية بورديو عن الآبيتوس، وبفضل التطورات التي طرأت على هذه القضية التصورية proposition coneptuelle وبالتعريف الذي

أعطاه لها، أراد أنيقاوم التوجيه الأولي Mécaniste للبنيوية، فهذا النقد للأولية Mécanisme البنيوية يسمح لنا أن نحدد بشكل صحيح؛ كيف سيتعامل مع البنيوية وأي نقد سيوجه لها. حيثينبغي على بيار بورديو أن يستعيد بقوة مبدأ "عدم الوعي"non– conscience nisme methodologique. وذلك لأن النسق يفرض بشكل آلي معايير السلوك على الأفراد، وأن هؤلاء لا يفعلون سوى إعادة انتاج هذا السلوك مما يجعلنا لا نفهم عمليات الإبداع، وعمليات التجديد وحتى التنافس بين الأشخاص، خاصة على مستوى التكوينgenése، وعمليات التعلم الاجتماعي التي يعملعلى تفسيرها من الناحية الشكلية وغير الشكلية، المعلنة وغير المعلنة، والتي تكون وتنقل نماذج الإدراك والسلوك عند العملاء الاجتماعيين، و يساهم في ذلك وبشكل جلي الأسر Familles والأنساق التربوية، كما أن التجربة الاجتماعية الآنية التي تتجدد بدون انقطاع لها دور في ذلك، إذ ينتج ما يمكن تسميته استبطان الخارجي فالأشخاص، إذا ما وجدوا في ظروف اجتماعية مختلفة فإنهم سوف يكسبون تبعا لذلك استعدادات مختلفة، وذلك حسب وضعهم التاريخي وموقعهم في نسق اجتماعي معين. عندها سوف يعني الآبيتوس مجموعة الاستعدادات المكتسبة ورواشم Shémes الإدراك، والتقويم والفعل التي طبعها المحيط الاجتماعي في لحظة محددة وموقع خاص.

إضافة إلى ما قيل فإن الآبيتوس، أي نسق الاستعدادات المكتسبة، هو في الوقت عينه منتج Producteur الممارسات، وأصل الإدراكات وعمليات التقويم والأعمال،والقواعد المولدة للممارسات، فمن العلاقات الموضوعية والسلوكيات الفردية، فهو في الوقت نفسه ناتج عن استبطان الشروط الموضوعية وهو الشرط اللازم للممارسات الفردية. مع العلم أن بين نسق الضوابط الموضوعية ونسق التصرفات القابلة للملاحظة المباشرة يتدخل دائما طرف آخر كوسيط، ألا وهو الأبيتوس، مركز الالتقاء الهندسي للحتميات وتحديد الاحتمالات والحظوظ المعيوشة، للمستقبل الموضوعي والمشروع الذاتي الطابع.

إن شروط عمليات التعلم ورسوخها، كونها نسبيا متماثلة داخل الطبقة الاجتماعية نفسها، من الممكن التعرف على آبيتوس كل طبقة، مرسخ، بالواقع، عبر نسق تربوي معقد يشمل العائلة المدرسة والمحيط الاجتماعي فالخصائص اللاشكلية لعملية استبطان الخارج يمكن ألا تكون أقل أهمية من الخصائص الشكلية. لإن الآبيتوس يفسخ المجال لمجموعة من السلوكيات والمواقف المتطابقة مع ما انطبع وترسخ، وبهذا تصبح متطابقة مع الضوابط الموضوعية، إنه يجعل إخراج المستبطن ممكنا لإن إخراج الرواشم اللاوعية للفكر،

والإدراك وللفعل تسمح للعملاء أن يخلقوا، عبر الوهم المبني بإحكام من التجديد والعفوية الحرة كل الأفكار، والإدراكات، والأفعال المطابقة، أن يتصرف العملاء بطريقة تتيح للعلاقات الموضوعية بين الطبقات أن تستمر. ولذا جاءت مقولة الآبيتوس لتحمل عنصرا جديدا في الجواب عن مشكلة إعادة الإنتاج الاجتماعية"".

التصور الثالث-إعادة الإنتاج الاجتماعي Reproduction Sociale:

إن فعل إعادة الإنتاج الاجتماعية، وبشكل خاص، إعادة إنتاج نسق علاقات الطبقات تؤكده المعطيات الاحصائية التي تتناول توزيع الثروات الاقتصادية والثقافية، إن دراسات الحركية المتصاعدة Mobilité ascendanté تفترض أيا يكن حجم الحركية المعنية، إعادة إنتاج يجدر التنويه بها. فالبنيوية التي تتناول المجتمعات المعروفة بالتقليدية، تميل للاعتقاد بأن ثبات البنيات هو شيء مكسب، دون أن تتساءل عن مجموعة الشروط المولدة لعمليات التكرار هذه، لقد حمل تحليل ماركس جوابا اجماليا لمشكلة إعادة إنتاج نسق الطبقات، ولكن مقتصرا على العلاقات الاقتصادية، ومضخما إلى أقصى حد العلاقة الوحيدة لتملك الرأسمال. بينما تحاليل بيار بورديو تهدف، بالعكس، إلى استخلاص كل النتائج من أفعال إعادة الإنتاج هذه، وعند التمايز الثقافي. وتفرض هذه التحاليل إدخال مجموعة من التصورات وبشكل خاص تفسير مفاهيم العنف الرمزي، الرأسمالي الثقافي واستراتيجية إعادة الإنتاج. دون شك، ليس للمدرسة إلا وظيفة واحدة هي تجديد التعسف الثقافي وفرض شرعي الطبقات المسيطرة، غير أن هذا الفعل المحدد للمدرسة يجهله غالبية الناس، فهو بشكل خاص يخفي الإيديولوجية التقليدية لتكافؤ الفرص، التي تهدف إلى جعلنا نقبل أن المدرسة تعمل تحديدا، على توفير المساواة التامة في الخطوط للطلاب ولا تعطي النجاح إلا لمستحقيه.

فالمدرسة إذا هي أيضا في توافق مع بنية علاقات الطبقات وتشارك، وفق طرائقها الخاصة، في تجديد السيطرة عن طريق المواربة في فرض الثقافة المسيطرة كثقافة مشروعة، فالحياد الذي تدعيه مناهج التعليم والذي يؤدي، حقيقة إلى استبعاد الطبقات المسيطر عليها يعزز شرعية الفوارق بين الطبقات، بعد أن يكون قد حولها إلى نتائج من التنافس العادل، والنظام المدرسي بإخفائه التعسف الثقافي وبجعلنا نعترف به كسلطة مشروعة من الفرض، يقر شرعا بتراتبية hiérarchie الثقافات الخاصة بكل طبقة فهو يفرض ويشرع التعسف الثقافي المسيطر، والعمل التربوي الذي ينحو إلى إنتاج التعلم عن حقيقة التعسف الثقافي الموضوعية، من واقع

كون هذا العمل التربوي المعترف به كسلطة فرض شرعية، يهدف إلى إنتاج الاعتراف بالتعسف الثقافي، عن طريق ترسيخه في الذهن كثقافة شرعية .

فالنظام المدرسي يمارس هكذا العنف الرمزي، أي ترسيخ التعسف الثقافي وفرض الآبيتوس المطابق لترتيب الطبقات الاجتماعية، إنه يمد الطبقات المسيطرة بفيض من الشرعية بتأكيده على امتلاكها للثقافة،فالنظام المدرسي بشكل خاص، يؤمن وظيفة المشروعية هذه عن طريق فرض اعتراف الطبقات المسيطر عليها بمعارف الطبقات المسيطرة، حيث تقوم إحدى النتائج غير الملحوظة للتعليم الإلزامي في كون هذا التعليم يتوصل إلى الحصول من الطبقات المسيطر عليها، على الاعتراف بالمعارف والمهارات الشرعية مسببا هكذا تبخيا للمعارف والمهارات، التي تخضع لها فعليا، الطبقات المسيطر عليها. وهكذا نرى أن المدرسة تشارك في فرض السيطرة دون عنف بارز ، أي في فرض السيطرة بلطف عن طريق اخفاء فرض الحقل الرمزي Champ Symbolique. ويصبح واقع شرعية تراتب الطبقات بارزا بوضوح في حالة تعزيز الرأسمال الرمزي Capital Symbolique، فأولاد الطبقات المحظوظة يصلون إلى المدرسة وهم يمتلكون رأسمالا Capital Linguistique، أهلية لغوية، أقرب إلى اللغة المدرسية، من الرأسمال اللغوي الذي يحمله الأطفال المتحدرون من أصول شعبية، ينتج عن ذلك أن الإقصاء المدرسي يطال أكثر هؤلاء الأطفال، مرا هكذا، من جديد، بشرعية اصطفاء أطفال الطبقات المحظوظة.

هذه الدراسة لوظائف النظام المدرسي تشدد على عملية ترسيخ الآبيتوس الطبقي وعملية تشريبه ونقله، بينما في كتابه التمايز La distinction يشدد بيار بورديو على الاستراتيجيات التي يستخدمها العملاء agents لضمان التمايزات الاجتماعية وأنماط الاعترافات المميزة، ويمكن أن نلمح، بين كتابه " إعادة الإنتاج" La reproduction وكتابه التمايز ، تطورا نحو مفهوم أكثر إشراقا عن تصرفات العملاء، لكن هذا التطور قد برز أكثر في عملية التنظير السابقة، لأن المدرسة إذا كانت مثلا تنقل إلى الأطفال والطلاب رؤوس أموال رمزية، فهي تتيح لهم أيضا الوسائل لاستخدامها في استراتيجيات التصنيف الاجتماعي، والحال أن المدرسة ليست الوحيدة التي تساهم في نقل الآبيتوس فالدراسات التي أجريت حول الطلاب في العلوم الإنسانية بينت، في الواقع إلى أي حد يتمتع" الورثة" héritiers بوسائل خارج الجامعة كأوقات فراغ، فنون حتى يتمايزوا عن الطبقات المحرومة. وهنا ينفتح باب حقل جديد من الدراسات لا يهتم فقط بتحليل إعادة الإنتاج الثقافية بكل

سياقاتها، بل بتحليل الممارسات الهادفة إلى إعادة الإنتاج: استراتيجيات إعادة الإنتاج هذا هو الهدف من مؤلف بورديو الأكثر دقة، أي تحليل هذه استراتيجيات المختلفة التي تسمح خاصة في الميدان الرمزي وميدان العلاقات الثقافية بإعادة إنتاج علاقات الطبقات باللجوء إلى مختلف التمايزات، وسوف تتحقق إذا إعادة الإنتاج من خلال الصراعات الرمزية .